

**المدرسة المستنصرية أقدم مدارس
العصر العباسي الشاخصة**

أ.د. رفاه جاسم

كلية الآداب – جامعة بغداد

المدرسة المستنصرية أقدم مدارس العصر العباسي الشاخصة

أ.د. رفاه جاسم

كلية الاداب - جامعة بغداد

تعتبر المدرسة المستنصرية ^(١) أقدم المدارس الشاخصة في العراق لحد الان .

إن ما تضمه المدرسة من وحدات بنائية والتي خصصت للدراسة تكشف بجلاء عن النظام التعليمي الذي كان سائداً في العصر العباسي .

إن ثمرة التقدم في النظام التعليمي كان مصدرها الاول الدين الاسلامي ، فكما هو معروف من خلال ما اشارت له المصادر التاريخية فان النبي محمد ﷺ هو أول مربٍ عربي في الاسلام ^(٢) ، علم الصحابة وهؤلاء علموه الناس وحرص العرب المسلمين على نشره بين الامم المختلفة . ولان مرجعهم في التشريع والعبادة والاجتماع والسياسة ، القرآن الكريم . ومن هنا كان فضل القرآن في انتشار التعليم ^(٣) ، ويمثل المسجد الركيزة الاساسية لنشأة حركة التعليم في العصر الاسلامي ، فكانت الحلقات الدينية والعلمية تقام في المساجد او بيوت الخلفاء ، لكن مع مرور الزمن ، أصبحت هذه الاماكن غير كافية لتلبية الحاجة ، إذ ان تزايد اعداد السكان دفع الى التفكير في ايجاد أماكن غير المساجد . ووصولاً إلى القرن الرابع الهجري التاسع الميلادي وما صاحبه من تقدم حضاري شمل كل جوانب الحضارة العربية الاسلامية ، بدأت فكرة المدرسة تتبلور وذلك بظهور دور مخصصة للتدريس ، فيها مساكن للغرباء وقفت لها

الاقواف وجعلت فيها خزانات الكتب ودرست فيها علوم مختلفة وهكذا كانت المدارس مرحلة متقدمة من سلسلة التطورات التي مرت بها حركة التعليم .^(٤) ويمثل منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي فاتحة خير لنظام التعليم والمدارس في الاسلام ، وذلك عندما أخذت الدولة احتضان فكرة المدرسة واتخاذها مركز لنشر الفكر الاسلامي . فهيات الدولة المباني لذلك وصرفت الاجور للمدرسين والطلاب وجعلت لها الاوقاف الكافية للصرف عليها وضمن دوامها .^(٥)

وهكذا بنيت المدرسة النظامية من قبل نظام الملك وزير السلطان السلجوقي الب أرسلان وهي احدى المدارس التي اقامها الوزير في كل من بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان ومرو وآمد^(٦) . وكان لنظامية بغداد أهمية كبيرة وتركت تأثيراً في الحضارة الاسلامية . واعتبرت اول مدرسة في الاسلام وذلك لان نظام الملك السلجوقي وضع قاعدة مهمة اتبعت من بعده في ارجاء العالم الاسلامي وفي مختلف العصور اللاحقة ، الا وهي انشاء المدارس من قبل الدولة واستقلالها عن ابنية المساجد وتوفير مستلزمات سكن وقاعات تدريس للمدرسين والطلبة مع تخصيص اجور شهرية لهم^(٧) .

وأما بخصوص النظام التخطيطي والعماري للمدرسة فيمكن القول أنه استند أصلاً عن نظام المسجد الجامع الذي تطور تخطيطه وعمارته تطوراً منطقياً

بحكم الضرورة ووفق متطلبات المدرسة من إقامة بيوت سكن لفريق من الاساتذة والطلاب سبل البحث والدراسة والمعيشة لهم^(٨) .

وبعد أرساء قواعد المدرسة بدأ عدد من المدارس منها النظامية والبلطاسية والتاجية والنتشية ومدرسة ابن دينار والمدرسة الشاطئية^(٩) .

وعلى الرغم من كثرة المدارس التي ورد ذكرها والتي لم نشر لها ايضاً ، إلا أن ما وصلنا وبقي قائماً هي المدرسة المستنصرية ، وبنيت من قبل الخليفة العباسي المستنصر بالله^(١٠) في سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م . وتكامل البناء في سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م . وكانت آية فنية رائعة ما بني على وجه الارض احسن منها^(١١) .

وأما بخصوص الأهمية التاريخية للمبنى فهو بحق أكبر مبنى فان بقاءه ماثلاً يعتبر اثراً من آثار تلك المدينة الزاهية عصرئذ . فظلت كالطود يتحدى حوادث الزمن التي مرت ، ولا تزال المدرسة المستنصرية من أجمل مباني بغداد وأعظمها أثراً على مر الزمن^(١٢) .

وكانت المدرسة المستنصرية جامعة اسلامية كبرى تدرس فيها علوم القرآن الكريم والفقهاء والحديث واللغة العربية والرياضيات^(١٣) .

وبعد ان استعرضنا تاريخ المدرسة لآبد من تسليط الضوء على تخطيط وعمارة المدرسة والتي هي اقدم المدارس الشاخصة ، والتي يكشف تخطيطها وعمارته

عن الفكر الثاقب للمعمار المسلم ، فضلاً عن الزخارف التي تزين أقسامها .
وتحفل كتب التاريخ بوصفها والإشادة ببنائها منها (ما بنى على وجه الارض
أحسن منها ولا أكثر وفقاً^(١٤)) وقال آخر (لم يعمر في الدنيا مثلها فعمرت
على أعظم وصف في صورتها واتساعها وزخرفتها وكثرة فقائها ووقوفها^(١٥)).

وعن بنائها فهي (محكمة البناء راسخة في الماء فسيحة البناء وصفها غريب
وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء^(١٦)) .

تخطيط المدرسة وعمارتها وزخرفتها :

ان الشكل العام للمدرسة مستطيل ، ابعاد المدرسة من الخارج ١٠٤,٨٠ م^٢ طولاً
وعرضها من الجهة الغربية ٤٤,٣٠ م^٢ فتتسع في الجهة الجنوبية الشرقية
فيصبح عرضها ٤٨,٨٠ م اما مساحتها الكلية ٤٨٢٦ م^٢ (١٧) .

وتضم المدرسة في تخطيطها العديد من الاقسام بدءاً بالمدخل والساحة الوسطية
(الصحن) والحجرات والأروين والغرف في الطابق الاعلى والممرات .

وللوصول الى اقسام المدرسة لابد من اجتياز المدخل الذي يقع في منتصف
الضلع الشمالي الشرقي تقريباً ، وهو شاهق البناء يرتفع عن باقي ابنية المدرسة
حوالي (٦ م) . ويبرز عن الجدار من الخارج بمقدار (٣.٥ م)^(١٨) . ويتسم
المدخل بالحصانة ، وتبرز أهميته من حيث اتقان بنائه وشكله المميز حيث

الزخارف والكتابة التي تزين واجهته ، مما اضفى عليه مسحة جمالية ينظر لها الداخل عند وصوله للمدرسة .

وللمدخل واجهة تزينها الزخارف التي رتبت ضمن سلسلة العقود المتراجعة التي تؤطر وتعلو فتحة المدخل . وقوام الزخرفة عناصر هندسية .

وتضم الواجهة ثلاثة عقود العقد الاول عقد مدبب منفوخ تحلية زخرفة قوامها خطوط متقاطعة تألفت منها اشكال هندسية مختلفة الاحجام منها الاشكال النجمية والمربعات الصغيرة . أما الزخارف النباتية فتراها حصرت داخل الاشكال الهندسية والنجوم والفراغات ، ومن ابرز العناصر النباتية التي ظهرت عنصر المروحة النخيلية^(١٩) (البالميت) منها البسيطة والمفصصة ، وتتناظر عناصر الزخرفة وتتقابل لتشكل من التكرار موضوعات زخرفية ظهرت باسلوب بديع . ان التكرار في الوحدات الزخرفية ادى الى نوع من الزخرفة اطلق الباحثون الاجانب على تسميته بالاريسك ، أما الباحثون العرب فسموه الرقش العربي او التوشيح العربي وقوامه مجموعة من العناصر النباتية المتكررة الى ما لا نهاية ، وتخضع الى اسلوب التناسق والتناسب في حجمها واشكالها واوزاعها وهذه الزخرفة هي من الابتكارات العربية الاسلامية في مجال الزخرفة .

أما الكتابة فتظهر بشكل اشرفة تزين واجهة المدخل واعلى الجدران ، ولم يقتصر ظهورها على كونها احد الأدلة الموثقة التي تحمل تاريخ البناء واسم

الباني بل هي ضمن الزخارف التي تزين الواجهة . وتتضمن الاشرطة الكتابية التي تتألف من ١٠ اسطر كل سطر يحمل مجموعة من العبارات ، لكن الذي يهمننا منها الشريط الذي يحمل اسم الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣هـ / ١٢٣٦م - ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م) حيث يظهر في النص (... سيدنا ومولانا إمام المسلمين وخليفة رب العالمين ابو جعفر المنصور المستنصر بالله امير المؤمنين ، شيد الله تعالى معالم الدين بخلود سلطانه وأحيا قلوب اهل العلم بتضاعف نعمه واحسانه وذلك سنة ثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ^(٢٠) . ثم نجد هناك شريط يزين اعلى الواجهة ويدور حولها في الواجهة المطلية على النهر ويحمل آيات قرآنية كريمة ، ويسد فتحة المدخل في الوقت الحالي باب خشبي حديث تم عمله من خلال اعمال الصيانة التي جرت للمدرسة خلال القرن المنصرم، وهكذا شكل المدخل بواجهته المزخرفة قطعة فنية متكاملة من حيث الزخارف . وتم تنفيذ الزخرفة بالأجر وهو المادة الأساسية التي بنيت بها المدرسة وعملت منه الزخارف المتنوعة وبعد اجتياز فتحة المدخل يصل الداخل الى المدرسة من خلال ما يشبه الايوان مسقف بقبو يزين باطنه الزخرفة ويطل على الساحة الوسطية بعقد مدبب كبير يستند طرفاه على عمودين مندمجين بالجدار ، والعقد الكبير يتوسط واجهة فتحة المدخل المواجهة للساحة الوسطية . وبعد اجتياز المدخل يتم الوصول الى الساحة الوسطية وهي مكشوفة مستطيلة الشكل ابعاده ٦٢,٤٠ م طولاً و ٤٧,٤٠ م عرضاً وبذلك تكون مساحتها الكلية ١٧١٠ م^٢ ^(٢١).

ومن اقسام المدرسة مسجدها الواقع بمحاذاة الضلع الجنوبي المطل على نهر دجلة ، ومن المعروف أن المساجد كانت من الوحدات الأساسية في تخطيط المدارس ويطلق عليها المساجد المدرسية أبعاد المسجد ٢٣ م طول جدار القبلة وعرضه ٥,٩٠ م ، ويطل المسجد على الساحة الوسطية بواجهة مؤلفة من كتفين ضخمتين طول الكتف الواحد ٦ م وعرضه ٢,٤٠ ، وبين هذه الاكتاف نجد ثلاثة عقود مدببة كبيرة نتوج الواجهة (٢٢) .

وتضم المدرسة إيوانين أحدهما يقع في الجهة الشمالية الغربية والآخر في الجهة الجنوبية الشرقية . والايوان قاعة مفتوحة من أحد جوانبها وذات سقف مرتفع ويطل على بناء (٢٣) . ولكل أيوان واجهة يزيد ارتفاعها عن ارتفاع البناية ويتوجها عقد كبير مدبب الشكل يرتكز طرفاه على عمودين مندمجين بالجدار ، ويغطي المساحة الموجودة فوق العقد زخارف هندسية قوامها فروع نباتية ، وسقف الايوان على شكل قبة . ويتمثل ايوان دار القرآن المطل على خارج المدرسة مع الأيوانين السابقين من حيث الشكل ومن حيث الزخرفة ومن اقسام المدرسة القاعات الكبيرة حيث نجد (٧) قاعات شرقية أغلبها مستطيلة الشكل يتقدمها رواق مرتفع يبلغ طوله (٢٣,٨٠م) وعرضه (١,٤٠م)^(٢٤) . وتتميز القاعات بارتفاع سقف كل منها ليصل الى ارتفاع البناية (٢٥) .

وكما هو معروف فان القاعات الكبيرة خصصت للمحاضرات ، ولكل قاعة مدخل مفتوح على رواق مرتفع مثلها وتتباين مساحة القاعات كذلك تباينت

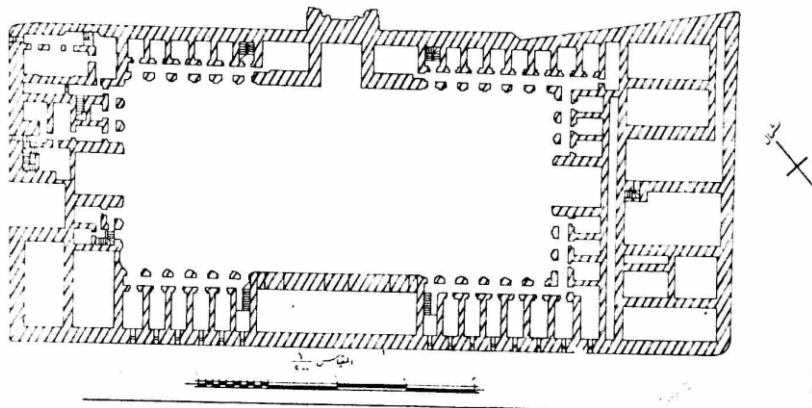
سقفوها . وبخصوص الرواق الذي يتقدم القاعات الكبيرة تم تسقيفه بقبو مدبب فتحت فيه (٤) نوافذ توزعت على مساحات متساوية .

وثمة وحدات بنائية في المدرسة هي الحجرات والغرف الصغيرة وبنيت من طابقيين . ويبلغ عدد حجرات الطابق الاول (٤٠) حجرة في حين بلغ عدد الغرف في الطابق الثاني (٢٦) غرفة^(٢٦) ، وخصت لكل الطلبة .

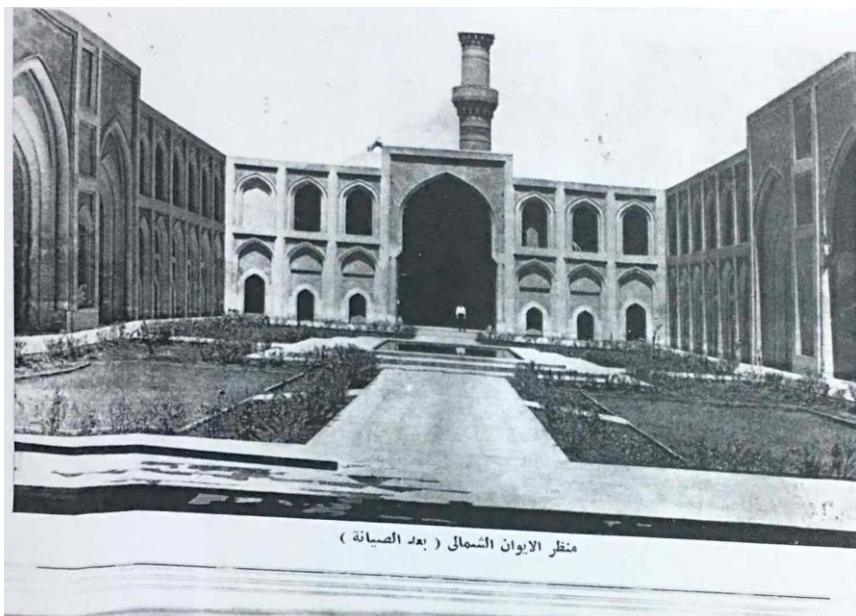
ومن أجل حماية بناية المدرسة بنيت لها مسناة وهي بناء ضخم من الآجر ومن المحتمل انه لاسناد البناء ، وكذلك بعد النهر عن البناية حوالي ١٢ م يستدعي بناء مسناة وذلك لايجاد طريق يسير عليه الناس^(٢٧) .

وبعد أن استعرضنا البحث لابد من الإشارة إلى الجانب التاريخي والآثاري للمدرسة ، فهي أقدم المدارس القائمة في العراق والتي تعود بتاريخها الى العصر العباسي ، والتي تدرس فيها العلوم الدينية ، فضلاً عن أنها تظهر مدى الاهتمام بالمؤسسات التعليمية وخصوصاً الخليفة العباسي المستنصر بالله الذي امر ببنائها .

واما الجانب الآثاري فالمدرسة تتميز بمساحتها الشاسعة التي تضم العديد من الوحدات البنائية التي ظهرت فيها العديد من العناصر العمرارية والزخرفية التي كانت على جانب كبير من الدقة والانتقان مما جعلها من المعالم الآثارية الشاخصة لحد الآن وعلى الضفة الشرقية لنهر دجلة في بغداد .

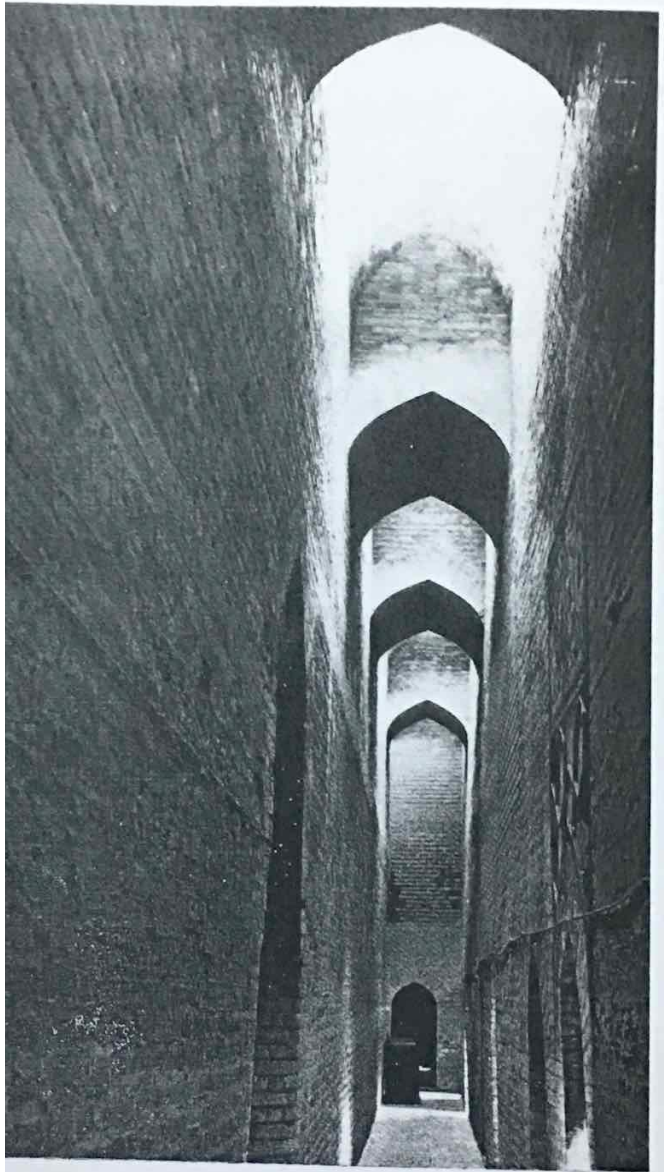


الشكل (١)



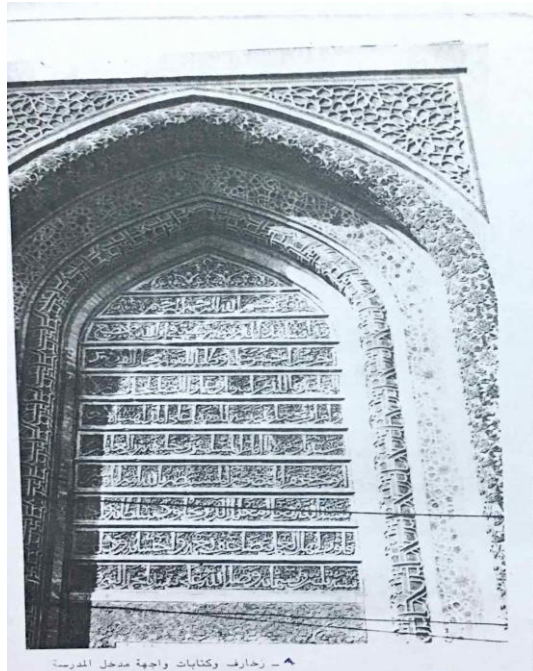
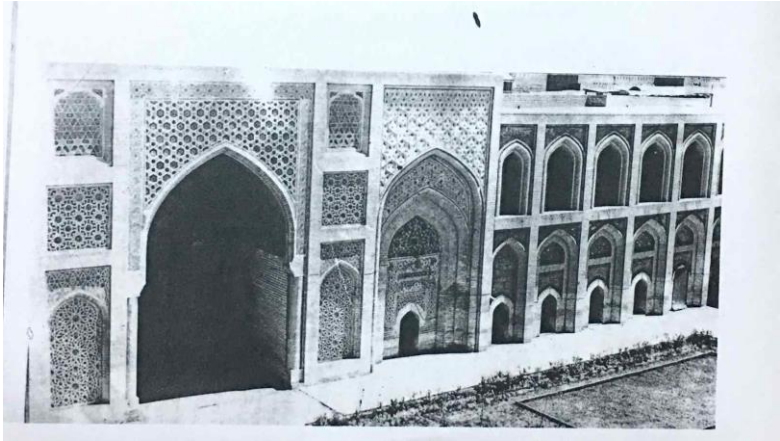
الشكل (٢)

الشكل (٣)

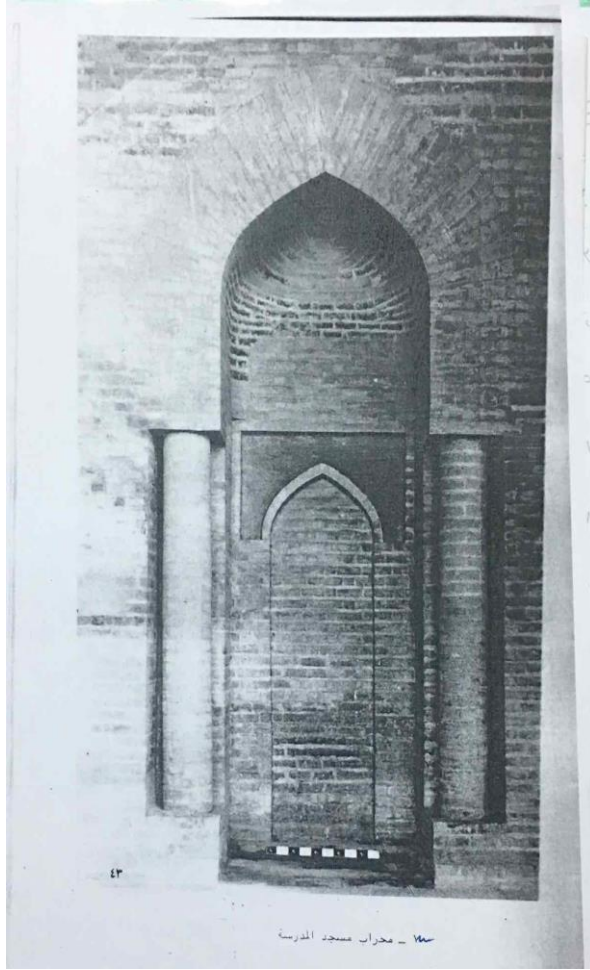


الرواق (المجاز) المؤدى الى الحجر والقاعات

الشكل (٤)



الشكل (٥)



الشكل (٦)

الهوامش :

- (١) تقع المدرسة المستنصرية في الجانب الشرقي من بغداد على ضفة نهر دجلة ، ابن الفوطي ، كمال الدين عبد الرزاق بن محمد الشيباني ت ٧٢٣ هـ ، تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م ، ص ٥٣ .
- (٢) أمين حسين ، المدرسة المستنصرية ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٠ ، ص ٦
- (٣) أمين ، المصدر السابق ، ص ٧ .
- (٤) الأعظمي ، خالد خليل حمودي ، المدرسة المستنصرية في بغداد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١ م ، ص ٩ .
- (٥) حيدر كامل ، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي ، بيروت ، ١٩٩٥ م ، ص ٨٢ .
- (٦) معروف ، ناجي ، المدرسة المستنصرية ، بغداد ، ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، ص ٦ .
- (٧) ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت ٥٦٧ هـ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م ، ج ٨ ، ص ٤٥ ؛ ابن جبير ، ابو الحسين محمد بن جبير الكنايني ، ت ٦١٤ ، الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٨ م ، ص ١٨٣ .
- (٨) فكري ، أحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها ، مصر ١٩٦٩ ، ج ٢ ، ص ١٥٤ و ١٩٢ .

- (٩) معروف ، المصدر السابق ، ص ١١ و ١٢ .
- (١٠) الخليفة المستنصر ، ابو جعفر ابن الظاهر بأمر الله وحفيد الناصر لدين الله ولد سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وبويع بالخلافة بعد وفاة ابيه سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٢٦ م ، أمين ، المصدر السابق ، ص ٣ .
- (١١) القرماني ، ابو العباس احمد بن يوسف الدمشقي ، ت ١٠٣٩ هـ / ١٦٢٩ م ، اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ١٨٠ .
- (١٢) أمين ، المصدر السابق ، ص ٣٢ .
- (١٣) الاربلي ، المتوكل على الله الازلي عبد الرحمن سنط فنيتر ، خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك ، مطبعة القديس جاور جيوس ، ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م ، ص ٢١٢ .
- (١٤) القرماني ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
- (١٥) ابن العيري ، غريغوريوس ، ابو الفرج بن اهرن الملطي ، ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ، تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، للأباء اليسوعيين ، بيروت ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م ، ص ٤٢٥ .
- (١٦) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٢١٢ .
- (١٧) الاعظمي ، ص ٢١ .
- (١٨) حيدر ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .
- (١٩) المروحة النخيلية ، عنصر زخرفي نباتي متطور اصلاً عن رؤوس النخيل وكان اول من استخدم له في الفن الآشوري واستمر استخدامه في فنون الحضارات التي قامت على ارض العراق ، حميد ، عبد العزيز ، الزخرفة في

الجص ، حضارة العراق ، نخبة من الباحثين العراقيين ، بغداد ، ١٩٨٥ م ، ج٩ ، ص ٣٨٦ .

(٢٠) الاعظمي ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٢١) الاعظمي ، المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢٢) حيدر ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٢٣) الاعظمي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٢٤) حيدر ، المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٢٥) الاعظمي ، ص ٢٩ .

(٢٦) حيدر ، ص ٨٥ .

(٢٧) حيدر ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .